الأنثربولوجيا في الجزائر قبل وبعد الاستقلال.

ارتبطت الأنثروبولوجيا في الجزائر والمغرب العربي بشكل عام خلال الفترة الاستعمارية بالتوجه الكولونيالي، من خلال الدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها عدد من الإداريين والضباط العسكريين ورجال الدين والأنثروبولوجيين المدفوعين من قبل الإدارة الاستعمارية بهدف التعرف أكثر على الخصوصية الثقافية والاجتماعية للمجتمعات المغاربية، وتسليط الضوء على عاداتها وتقاليدها وأعرافها، الأمر الذي ساعدها في تكريس حكمها الاستعماري طيلة هذه الفترة.

وامتدادا لهذا رسخ في ذهن الجزائريين سواء بتوجههم الرسمي أو غير الرسمي ارتباط الأنثروبولوجيا بالاستعمار كعلم استعماري، الأمر الذي انعكس بشكل واضح وجلي على تدريس المادة أو العلم في الجامعات الجزائرية بحيث تم منع تدريسها طيلة عشريتين من الزمن بعد الإستقلال، لتعود بعدها إلى الواجهة في بعض الجامعات والبداية كانت بالمعهد الوطني للثقافة الشعبية بتلمسان سنة 1984، ليعرف بعدها العلم حركة انتعاشية مع تعميم تدريسها في مختلف الجامعات وبشكل خاص في أقسام العلوم الإنسانية والاجتماعية، وظهور عدد من المراكز والمخابر البحثية المتخصصة في الأنثروبولوجيا.

وقد مرت الأنثربولوجيا في الجزائر بمراحل متباينة خلال الفترة الاستعمارية وبعد الاستقلال، تميزت كل مرحلة بأحداث وتفاصيل تختلف عن غيرها من المراحل.

أولا- أثناء الفترة الإستعمارية:

ارتبطت الأنثروبولوجيا في الفترة الاستعمارية أو الكولونيالية بالمساعي التوسعية للحركات الاستعمارية التي شهدها العالم بصفة عامة، والمغرب العربي والجزائر بنوع من الخصوص، حيث مرت الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر أثناء هذه الفترة بدورها بمرحلتين متباينتين:

- مرحلة أولى: **امتدت من النصف الثاني للقرن التاسع عشر إلى غاية بداية القرن العشرين،** تميزت الدراسات الأنثروبولوجية خلالها **بالطابع العسكري**، فمعظمها أنجز من قبل **ضباط عسكريين أو موظفين تابعين للمؤسسة العسكرية**، حيث كانوا من الأوائل الذين أنجزوا **دراسات أثنوغرافية**، هيمنت عليها ذهنية العسكري وليس المثقف أو الأكاديمي، وتميزت دراساتهم **بالعمل الأثنوغرافي الوصفي التجميعي للمعطيات الاجتماعية والثقافية** من خلال الاحتكاك المباشر بالمجتمعات المدروسة، حيث ركزوا على دراسة **البنى الاجتماعية والتنظيمات الدينية**، بهدف معرفة **خصوصية المجتمع الجزائري** والتعرف على نقاط الضعف فيه قصد **السيطرة عليه**، وتسهيل عملية الاحتلال والتوسع وليس بهدف البحث العلمي البريء، من أجل ذلك تم توجيه الأنظار نحو مناطق **القبائل والأوراس وميزاب ثم التوغل في الصحراء** قدر ما سمحت به الظروف.

حيث يذهب المؤرخ الفرنسي شارل أندير جوليان –في هذا الصدد– إلى أنه وإلى غاية سنة

1847 لم يكن بين أيدي السلطة المحتلة في الجزائر سوى تقريرين رسميين كان يمثلان أهم ما يمكن معرفته عن الجزائر؛ فلما وطئت أقدام المستعمر أرض الجزائر لم تكن لديها من المعرفة سوى أنها كانت بكل ابتذال أرضا تركية تصلح للاغتصاب، وكانوا يتحدثون عن الجزائريين على أنهم أناس همجيين وبربريين ومتخلفين، ولما استشعر المستعمر ضرورة ومعرفة الآخر، لم يجد من يصلح لهذه المهمة سوى الجيش، وفي سنة **1837** قرر وزير الحرب البدء في استكشاف الجزائر علميا، ولكنه لم يجد على أرض الميدان سوى أفراد الجيش الذين أنجزوا عمل السوسيولوجيين والمؤرخين والألسنيين.

وبهذا سلمت الجزائر إلى هواة من ضباط الشؤون الأهلية وصغار المعلمين والرحالة والمبشرين الذين ارتجلوا علم الاجتماع، والذين لم يكن هدفهم البحث العلمي ف "لم يهتموا بإعداد ملفات وتقديمها كتقارير ... بل كانوا يقدمون انطباعات مرفوقة بآرائهم الشخصية "، ولم يكن هناك ما يحثهم على الاجتهاد والتعمق، لأن ما هو سطحي عند الأهالي كان كافيا لهم لتفسير الأمور، وتقديم صورة حسبوها مكتملة المعالم حول حياة هذا الشعب وأنماطه السلوكية والاعتقادية. ويقدم كتاب "جزائر الأنثروبولوجيين" أمثلة عن كتابات سطحية لعسكريين، لم تكن إلا وصفا شكليا بعيدا عن التعمق في أغوار حياة وثقافة الأهالي، فكتابات الملازم العام للشرطة **أوبينوز** –على سبيل المثال– لم تقدم عن طرائف عيش الجزائريين إلاّ تفاصيل حول طرائق عيش السكان الحضر، وهي من وضع رجل لا يعرف الجزائر إلاّ من خلال هذه الملفات التي انبثقت منها أول رؤية متناسقة للعلاقات بين وضع قطر والمنزلة التي يراد منها، فكتابات أمثال هؤلاء العسكريين حول المجتمع الجزائري لم تكن سوى أوصاف انطباعية عادة ما اتسمت بالسطحية والسذاجة فقد تم بين سنوات **1844** و**1867** وضع ما يقارب الأربعين مجلدا، جمع أغلبه العسكريون، وشاركهم جمعها غيرهم من الاثنولوجيين والأنثروبولوجيين، والمهتمين بالأنماط الثقافية المحلية، قدمت صورة مختلفة الأبعاد متشعبة زوايا النظر عن إنسان شمال إفريقيا العربي أو البربري الذي لم يكن يعرف له غير هذا الاسم.

وبذلك شكلت دراسات الأنثروبولوجيين العسكريين – في عمومها الغالب– باستثناء البعض– أحكاما قبلية غير مؤسسة على أي مرجعية معرفية، وهذا راجع بالأساس إلى عدم اختصاص هؤلاء العسكريين في مجال البحث الأنثروبولوجي، وخوضهم غماره– كما يقول عبد الباقي الهرماسي – "صدفة".

➢ <u>ومرحلة ثانية:</u> امتدت من بداية ثلاثينات القرن العشرين إلى غاية الاستقلال، مهّد لها تأسيس **معهد الأثنولوجيا** في باريس **سنة 1927**، الذي أعقبه تأسيس **معهد الدراسات الاستشراقية** بجامعة الجزائر مع بداية الثلاثينات، أوكلت له مهمة إنجاز الدراسات حول البلدان المستعمرة، تحت إشراف نخبة من الأكاديميين من تخصصات معرفية مختلفة يتقدمهم الأثنولوجيين، تميزت الدراسات التي أنجزت في هذه المرحلة بطابع الأبحاث المناطقية وخوضها في مواضيع جديدة مثل القانون

الإسلامي والقوانين البربرية، وقد كان لتبني الهيئات العلمية مهمة البحث الأنثروبولوجي في هذه المرحلة الأثر الأكبر في **تخليص الدراسات المنجزة من طابعها الاستعماري** وإضفاء طابع جديد عليها.

وقد أطلق على هذا النوع من الدراسات الأنثروبولوجية تسمية "أنثروبولوجيا القطيعة"، والتي ظهرت كاتجاه ضد الأنثروبولوجيا الانقسامية (التي كانت سائدة في الفترة السابقة) في كل مبادئها، لأنها اكتشفت أن المجتمع الجزائري هو مجتمع لا يمكن تطبيق عليه الانقسامية القبلية، وهو ليس بمعزل عن الحداثة وعن التفكير، وقد مثله أنثروبولوجيون أمثال "**جاك بيرك** J.Berque" و"**بيار بورديو** P.Bourdieu" و"**جرمين تيون** G.Tillion" وغيرهم. وأهم أساس لأنثروبولوجيا القطيعة هي دراسة المجتمع المغاربي والجزائري بالخصوص بطريقة حيادية دون الحكم عليه، وكذا نفي تبعيته للاستعمار. من هنا جاءت الدراسات الأنثروبولوجية لتركز على المواضيع الدالة على قوة التقاليد مثل أهمية الشرف عند القبائل، الكرامة، التضامن القبلي، المرأة ومكانتها، هذه القيم كلها تساهم في خلق الانسجام داخل الجماعات والقبائل وتعبر عن الثقافة والحياة الاجتماعية.

ومن أبرز الدراسات الأنثروبولوجية خلال هذه الفترة، نذكر على سبيل المثال لا حصر دراسة "**ألفرد بل**" **حول** مساجد بني سنوس بتلمسان، حملت وصفاً دقيقًا لمساجد المنطقة وسكانها، غير أنها بحكم أنها كانت موجهة للسلطة الفرنسية الاستعمارية وإن سلمنا أن نوايا "**بل**" كانت حسنة وغرضه المحافظة على المساجد الأثرية والعتيقة والمحافظة عليها بترميميها، إلا أن السلطة الاستعمارية استغلتها لتسهيل التحكم في المساجد بتعيين أئمة رسميين يقومون بممارسات سلبية كسرقة أموال الوقف، وهذا ما يشير إليه ألفرد بل بقوله: "يجب الاعتراف بأن هذه المصلحة (الحبوس) التي يسهر عليها المسلمون، لم يكن يُعهَد بها دائما إلى موظفين منضبطين ونزهاء وأنه عادة ما كانت أموال الحبوس تُختَلس من طرف الموظفين المسلمين الذين كانت تُوكل إليهم مهمة حفظها".

كما نجد دراسة "بيار بورديو" عن المجتمع القبائلي، يمثل بورديو أحد رواد اتجاه القطيعة الذين انشغلوا بالعمل الإمبريقي التطبيقي المنتظم، والاستناد إلى المنهج الإثنوغرافي وأساليب المسح الاجتماعي والتنظير النقدي، بالإضافة إلى قطيعته مع المعرفة الاستعمارية وهذا ما يميزه عن ألفرد بل حيث أن بحوث ألفرد بل كانت موجهة، أما بورديو فقد كانت دراسته حول القيم القبائلية كالشرف علمية وموضوعية، وقد وظف من خلال دراسته الميدانية واستنتج مفهوم" الرأسمال الثقافي والرأسمال الرمزي"، وقد ركز عليه بورديو باعتباره قابل للتحول إلى رأسمال مادي أو اقتصادي، وهذه السمة في رأيه عامة في كل المجتمعات البدائية والحديثة على السواء ولا يوجد مجتمع بدونها.

وبناء على ذلك فإن الرأسمال الثقافي هو أنساق رمزية وهو موضوع صراع بين القوى الاجتماعية المختلفة ، وهدف كل قوة اجتماعية في صراعها الاجتماعي إلى الهيمنة على حقل الثقافة وإنتاج وتوزيع رأسمال الثقافي فيه وذلك بغية احتكار العنف الثقافي في المجتمع أي احتكار قدرة فرض

معاني ومبادئ بناء الوقائع الاجتماعية وفق مصالح هذه القوة الاجتماعية وتحويل ما تمتلكه من رأسمال مادي إلى رأسمال ثقافي كغطاء مقبول ومشروع تحمي به مصالحها الاقتصادية، ومثال ذلك الرجل الذي يتمتع بالسمعة والحسب والنسب يستطيع أن يذهب إلى السوق بلا مال ويأتي معه بأشياء من السوق معتمدا على اسمه وسمعته وجاهه. ومنه فإن دراسة كل من ألفرد بل وبيار بورديو وإن اختلف موضوعها إلا أنهما يختلفان من حيث الإيديولوجية التي كانت تتحكم في دراستها، فإيديولوجية "بل" كانت موجهة من قبل الاستعمار، رغم علميتها، وبورديو كانت في قطيعة مع الاستعمار وإيديولوجيته مما جعلها أكثر علمية من دراسة ألفرد بل.

وعلى العموم؛ فرغم ارتباط الدراسات الأنثروبولوجية في الفترة الاستعمارية بالطابع العسكري والتوسعي بأهداف غير بريئة، إلا أنها قدمت معطيات ومادة علمية هامة حول الخصوصيات الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال حقبة هامة من حقبه التاريخية، والتي كان من المفروض استغلالها من أجل فهم احتياجات المجتمع ووضع خطط التنمية، من أجل السير نحو التخلص من الآثار المختلفة التي تركها المستعمر في جميع المجالات، لكن ردة الفعل الرسمية والأكاديمية تجاه الأنثربولوجيا بعد الاستقلال كانت سلبية، وأحدثت القطيعة معها وتم التضييق عليها بوصفها علم للمستعمر.

ثانيا– فترة ما بعد الاستقلال:

حيث يمكن تقسيم هذه الفترة بدورها إلى مرحلتين متباينتين، لكل منهما مميزات وطابع خاص يميزها عن الأخرى.

1– فترة ما بعد الاستقلال إلى منتصف الثمانينات:

ارتبطت الأنثروبولوجيا في المخيال المعرفي الرسمي الجزائري ما بعد الاستقلال بأنها علم استعماري بامتياز، سخّرته المنظومة الكولونيالية الفرنسية منذ أول عهدها بالجزائر، من أجل معرفة الشعب الجزائري والتحضير لاستراتيجية استعمارية تتماشى وأنماط تفكيره، ومن هذا المنطلق، رسخ في ذهن أصحاب القرار السياسي بعد مرحلة الاستقلال **اعتبار الانثروبولوجيا علماً استعمارياً**، قررت الحكومة الجزائرية نتيجة لذلك **منع تدريسه في الجامعات الجزائرية، وعدم الاعتراف به والعمل على إقصائه من دائرة المعارف الاجتماعية والإنسانية**، بل وصل الأمر إلى نعت كل باحث مهتم بهذا العلم بأنه من أتباع الاديولوجيا الكولونيالية.

حيث بقيت الأنثروبولوجيا طيلة هذه الفترة حبيسة تأويلات سياسوية وصفتها **بالعلم الذي يخدم مصلحة المستعمر**، مما أثر على اهتمام الباحثين الاجتماعيين بها، إضافة إلى تطور **النظرية الماركسية** التي تزامنت مع الحركات التحريرية في العالم، أثرت على الباحثين الاجتماعيين في الدول النامية، التي لم تكن الجزائر بمنأى عنها حيث اهتمت جامعاتنا بعلم الاجتماع، الذي ركز الباحثون

فيه على تحليل التركيبة الاجتماعية والاقتصادية والتحولات المرافقة لها بعد سنوات الاستقلال، ويرجع العديد من الباحثين القطيعة بين الأنثروبولوجيا والجامعة الجزائرية إضافة إلى اعتبارها علما استعماريا، إلى أسباب أخرى متعددة أبرزها:

- الاهتمام بالعلوم الدقيقة على حساب العلوم الاجتماعية بفعل الحاجة إلى التنمية، التي أعطى القائمون عليها الأولوية للأمور الاقتصادية وتبني النهج الاشتراكي واستيراد الحلول الجاهزة، دون المرور على دراسة الواقع المحلي ومدى استعداده لمثل هذه الحلول.
- الفهم الخاطئ حول موضوعات البحث الأنثروبولوجي على أنها موضوعات مبتذلة ومتجاوزة، الناتج عن سوء فهم للمعرفة الأنثروبولوجية لدى شريحة واسعة من أفراد المجتمع بمن فيهم المتعلمين، إضافة إلى الأفكار اللصيقة بأن هذا العلم يطرح نظريات وأفكار لا تنسجم مع التراث الفكري والثقافي العربي والإسلامي، مما أعاق اندراج المعرفة الأنثروبولوجية ضمن حيز الممارسة الأكاديمية.

كل هذه العوامل ساهمت في **تضييق الخناق** على الأنثروبولوجيا كتخصص أكاديمي في الجامعة الجزائرية، مما انعكس سلبا على الدراسات الأنثروبولوجية خلال هذه المرحلة "حيث بقيت كامنة لا تظهر إلا في مقاربات ثقافية لدراسة الظواهر السوسيولوجية".

2- فترة ما بعد الثمانينات (مرحلة الإعتراف الأكاديمي):

تميزت هذه الفترة بالانفتاح التدريجي على المعرفة الأنثروبولوجية وفق منحى تصاعدي، نتيجة المطالب المتنامية لنخبة من الأكاديميين وبعض الجمعيات الفاعلة في الحقل الثقافي، والتي توجت بمنح الترخيص لتأسيس **المعهد الوطني للثقافة الشعبية** بتلمسان **سنة 1984**، "بعد قيام انتفاضات طلابية بمنطقة القبائل للمطالبة بتدريس الثقافة الأمازيغية واللغة البربرية"، هذه الخطوة اعتبرت بمثابة الاعتراف الأكاديمي بمادة الأنثروبولوجيا في الجزائر، وظل اهتمام المعهد منصبا فقط على تدريس الثقافة الشعبية لمدة ناهزت 6 سنوات، إلى غاية بداية **سنة 1990** التي جاء فيها الإعتراف بالأدب الشعبي كاختصاص قائم بذاته، ثم بشعبة الأنثروبولوجيا.

في بداية التسعينات من القرن الماضي توج الانفتاح على المعرفة الأنثروبولوجية بتأسيس **المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (C.R.A.S.C)** بوهران **سنة 1992**، والذي تم إلحاقه بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي فيما بعد، وأسندت له مهمة البحث في هذا المجال، ثم توسع نشاطه إلى تكوين باحثين في الاختصاص للحصول على شهادات أكاديمية في الأنثروبولوجيا (ماجستير ودكتوراه)، بالشراكة مع بعض الجامعات الوطنية في فترة لاحقة، بينما على مستوى الجامعة في هذه العشرية التي تميزت بعدم الاستقرار الأمني كان تدريس الأنثروبولوجيا مقتصرا على جامعة تلمسان.

مع بداية القرن الحالي عرف تخصص الأنثروبولوجيا بعض الانتعاش مقارنة بالعشرية التي سبقته، حيث تم فتح هذا التخصص في طور ما بعد التدرج بثلاث جامعات في مرحلة أولى، بداية

بجامعة قسنطينة بالتنسيق مع المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية نهاية سنة 2000، بفتح 20 مقعدًا بيداغوجيًا لدرجة الماجستير، وجامعة السانيا بوهران بمعهد علم الاجتماع خلال نفس السنة بدفعة أولى بـ10 مقاعد بيداغوجية، ثم دفعة ثانية سنة 2003، جامعة تلمسان بمعهد الثقافة الشعبية وبأربع تخصصات (أدب شعبي، لهجات، فنون شعبية، أنثروبولوجيا)، وبما أن الجامعة الجزائرية لم تكن توفر التكوين في مرحلة ليسانس تخصص أنثربولوجيا، فقد التحق طلبة قسم ما بعد التدرج في هذه الجامعات الثلاث من تخصصات أخرى مثل الأدب، علم النفس، التاريخ، التهيئة العمرانية، الإعلام.

بعدها تم فتح التخصص في ما بعد التدرج بالمركز الجامعي بخنشلة سنة 2005 بـ 15 مقعدًا بيداغوجيًا، ثم قام مركز (C.R.A.S.C) بفتح مسابقة الدخول إلى مدرسة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا بتاريخ 16 أكتوبر 2008 بالشراكة مع جامعات (قسنطينة، تيزي وزو، بجاية، مستغانم وتلمسان)، حيث كانت المسابقة مفتوحة لتخصصات علم الاجتماع، علم النفس، اللغة والثقافة الأمازيغية، ليشهد تخصص الأنثروبولوجيا بعدها توسع وحركة غير مسبوقة خاصة بعد الإصلاحات التي عرفتها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بتبنيها نظام ل.م.د، حيث تم فتح التخصص في أقسام التدرج وما بعد التدرج في عديد من الجامعات والمراكز الجامعية على المستوى الوطني، ففي الوقت الراهن يتم تدريس الأنثروبولوجيا وبعض المقاييس التي تنتمي إليها في مختلف الجامعات الجزائرية دون استثناء، سواء كتخصص معرفي أو كمقياس ضمن التخصصات الأخرى في مختلف مراحل التدرج وما بعد التدرج.

ورغم هذا تبقى الأنثربولوجيا الجزائرية تشكو من قلة الباحثين المختصين فيها، ومن قلة الدراسات المتخصصة والكتابات والتأليفات نتيجة تأخر اعتمادها مقارنة بالفروع العلمية الأخرى، ونتيجة تغييب تقاليد الدراسة الميدانية والحقلية، سواءً في نشاط مخابر البحث أو في تكوين الطلبة خلال الأطوار المختلفة للتعليم العالي، أو حتى في كتابات ومنشورات الأساتذة والباحثين، فلا يمكن الحديث عن دراسات أنثربولوجية رصينة تحاكي الواقع دون دراسات ميدانية وحقلية حقيقية مبنية على أسس منهجية البحث الميداني، فرغم خصوبة الميدان في الجزائر إلا أن هذا النوع من الدراسات يحتاج لجهود أكبر وإلى نظرة أكثر تخصصًا، يمكن من خلالها تكوين مدرسة أنثربولوجية محلية أو إقليمية تمكن من رؤية المجتمع المحلي بأعيننا لا بأعين غيرنا.

- **جدول يلخص المراحل التي مرت بها الأنثروبولوجيا في الجزائر قبل وبعد الاستقلال:**

المرحلة	الفترة	طابع الدراسات	الخصائص والمميزات
قبل الاستقلال			
مرحلة أولى: الدراسات العسكرية	النصف الثاني للقرن 19 – بداية القرن 20	– طابع عسكري – أُنجزت الدراسات من قبل ضباط عسكريين وموظفين تابعين للجيش – ركزت على البنى الاجتماعية والتنظيمات الدينية.	– هدفها معرفة خصائص المجتمع الجزائري للسيطرة عليه وتسهيل الاحتلال – لم تكن بحثاً علمياً بحتاً – تركزت على مناطق القبائل والأوراس وميزاب ثم الصحراء
مرحلة ثانية: أنثربولوجيا القطيعة	بداية ثلاثينات القرن 20– إلى غاية الاستقلال	– أُنجزت الدراسات من قبل أكاديميين مختصين – تركزت على المواضيع المناطقية – أُطلق عليها "أنثروبولوجيا القطيعة"	تخلصت من الصبغة الاستعمارية– تأسيس معهد الأثنولوجيا في باريس 1927 – تأسيس معهد الدراسات الاستشراقية بجامعة الجزائر بداية الثلاثينات.
بعد الاستقلال			
مرحلة التضييق والمنع الأكاديمي	بعد الاستقلال إلى غاية منتصف الثمانينات	– اعتُبرت الأنثروبولوجيا علماً استعمارياً – منع تدريسها في الجامعات الجزائرية – غياب الاهتمام بالبحث الأنثروبولوجي	– فهم خاطئ للأنثروبولوجيا – اهتمام بالعلوم الدقيقة على حساب العلوم الاجتماعية – سيادة نظرية الماركسية
مرحلة الاعتراف الأكاديمي	ما بعد الثمانينات إلى غاية الآن	– انفتاح تدريجي على الأنثروبولوجيا – تأسيس المعهد الوطني للثقافة الشعبية بتلمسان 1984 – تأسيس المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (C.R.A.S.C) بوهران 1992	– توسع تدريس الأنثروبولوجيا في الجامعات الجزائرية – وجود نقص في الباحثين المختصين والدراسات المتخصصة.